دراسات إسلامية
- ٣ -

إصدار
اتحاد الطلبة المسلمين و اتحاد العمال المسلمين
في أوروبا

العمل الجماعي

آدابه وشروطه

الطبعة الثانية
«مزيدة ومنقحة»

الناشر
الدار الإسلامية للإعلام
بون - ألمانيا الاتحادية

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

شوال ١٤١٢هـ ونيسان / أبريل ١٩٩٢

حقوق الطبع والنشر والترجمة والتوزيع محفوظة

للدار الإسلامية للإعلام

I I D. e.V.
CHARLOTTENSTR. 14
D- 52070 Aachen
GERMANY FED. REP.

محـتويات الكـتاب

صفحـة

تمهيـد ٧

حول مصطلح «جماعة المسلمين» ١١

العمل الجماعي فريضة وضرورة.. ..... ١٩
وله آداب وشروط

من متطلبات العمل الإسلامي ٢٧

تمهيـــد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

﴿يـا أيهـا الـذين آمنـوا اتقـوا الله حق تقـاتـه ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (آل عمران: ١٠٢).

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً﴾ (النساء: ١)

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ (الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١)

وبعد:

فقـد كتب الله عز وجـل ـ بفضله وكـرمه ـ لهذه الدراسة في موضوع «العمل الجماعي» قَبولاً واستحساناً لدى قاعدة عريضة من شباب الدعوة الإسلامية، وحين نفدت الطبعة الأولى، وكثر الطلب والإلحاح على إعادة طبعها، ترددنا في اتخاذ القرار رغبة في تطوير «المضمون» والتوسع في شرح الشروط والآداب والمتطلبات التي وردت في الطبعة الأولى. وبعد أخذٍ ورد استقر الرأي على إصدار الطبعة الثانية من كتاب «العمل الجماعي» آخذين بعين الاعتبار أموراً أبرزها:

أولاً: المحافظة على أصل هذه الدراسة باعتبارها عملاً تاريخياً مفيداً تناول بالبيان المركّز جملة من أصول العمل الجماعي، وهذه الأصول يحتاج إليها كثير من أبناء الحركة الإسلامية في مرحلة التكوين الجماعي، ولم نشأ أن نتوسع في تفصيل مجاله كتب الشرح والتبسيط.

ثانياً: والمحافظة على أصل الكتاب لا تلغي واجب إعادة النظر في الجوانب التي سُجلّت على الطبعة الأولى، وبالمقارنة بين الطبعتين: الأولى والثانية، يلاحظ حذف بعض العبارات الموهمة، أو إضافة ما يوضح المعنى المقصود، آملين أن تكون هذه الطبعة أكثر ضبطاً في التعبير عن الأصول المذكورة.

ثالثاً: الاهتمام بمراجعة الآيات القرآنية، مع ذكر اسم السورة ورقم الآيات.

رابعاً: مراجعة الأحاديث النبوية، لبيان مصادرها، مع ذكر ما قاله أهل الاختصاص بالحديث بشأنها إن تطلب الأمر ذلك.

خامساً: العمل على إضافة مجموعة من النصوص التي تدعم الأفكار الجماعية الواردة في هذه الدراسة، وهذا ما يلاحظه المقارن بين الطبعتين، وبخاصة في مجال الحديث النبوي.

هذا، وهناك أمور تحسينية لم يرد ذكرها فيما سبق، قصدنا من صنعها إلى تقديم هذا الكتاب في طبعته الثانية بصورة أكثر ضبطاً وأفضل تبويباً وتعبيراً.. والله نسأل أن ينفع المسلمين بهذا الجهد، وأن يجزل الثواب لمن أعده وهيأه وساهم في طباعته وتوزيعه.. والحمد لله رب العالمين.

شوال عام ١٤١٢
نيسان / أبريل عام ١٩٩٢

اتحاد العمال المسلمين في أوروبا
اتحاد الطلبة المسلمين في أوروبا

من مقدمة الطبعة الأولى

«وإذ نطرح هذه القضيّة في هذا الكتاب نقول مع الإخوة الذين أعدّوه: **إن الحق في المسائل الخلافيّة لا يتعدد، فلا بد أن يكون أحد المجتهدين مصيباً**.. ولكن الله تعالى ضمن الأجر والقبول لكل مؤمن يتحرى الصدق، وبذل جهده ووسعه ليتعرف على الحق؛ حتى إذا غلب على ظنه جواب أو رأي أو موقف.. فهو الرأي والموقف الذي يتقبله الله تعالى منه طالما أنه لم يخرج في فهمه عن قواعد الاستنباط ومناهج الفهم المقررة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولا نريد بطرح هذه القضية على شكل «دراسة موجزة» أن نقف بها عند الجانب النظري والتأمل المنهجي، بل نرجو من وراء ذلك أن تنتقل الكلمة الصائبة إلى **واقعنا فنعيشها حية فاعلة في عملنا الإسلامي حيث كنا من الأرض**»

حول مصطلح «جماعة المسلمين»

من الأمور الهامة التي دعا النبي ﷺ إليها في كثير من الأحاديث أن **يلزم المسلم «الجماعة»**..

وعنـدما يتأمل المرء فيما ورد عن النبي ﷺ في هذا المعنى يستشعر الأهمية البالغة والضرورة العملية الملحة للزوم الجماعة، حيث يضع النبي ﷺ هذا الأمر تعبيراً عن الالتـزام بمنهج الإسلام الكامل والاتباع للسنة المطهرة، ومخرجاً من الأزمات والفتن، فالجماعة: هي الإطار الذي يصوغ حياة المسلم العملية ليؤدي دوره وواجبه في الحفاظ على العقيدة في قلبه، ولينطلق بين الناس مستشعراً واجبه الاجتماعي في تأكيد الهوية الإسلامية للمجتمع، وتأكيد الانتماء للأمة المسلمة، معبـراً عن ذلـك بحمل هموم الأمة الحاضرة، والاستفادة من تجاربها الماضية، وبالعمل الجاد لتحقيق تطلعاتها وأهدافها المستقبلية.

من خلال هذا الإطار العام لمعنى لزوم الجماعة، أصبح من الضروري أن نعمد إلى شرح هذا المصطلح الإسلامي «**جماعة المسلمين**» لنحدد من خلال معانيه وآفاقه واجبات المسلم وما يمليه عليه الأمر الشرعي بلزوم الجماعة:

١ ـ **جمـاعة المسـلمين**: هم المسلمون الذين دخلوا في عقد البيعة مع إمام للمسلمين ذي سلطان «سلطة تنفيذية» بحيث يستطيع أن يُمضيَ ما يريد، ويجمع الأمة ويحكمها بما أنزل الله، ويقيم الحدود ويحمي الثغور، ويكون مؤتمناً على دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم. وقد ذكر ابن خلدون أن الإمام إذا لم يستطع

أن يمضي رأيه ـ كأن كان مقهوراً أو عاجزاً عن التصرف جملة بالأسر وشبهه ـ فإنه يفقد شرط السلامة الواجبة في الإمام ولا تجب طاعته عندئذ[1].

والنصوص التي وردت تأمر بالطاعة، وتنهى عن مفارقة الجماعة تنصرف إلى هذا المعنى المقصود بـ «جماعة المسلمين»، ونذكر هنا طرفاً منها:

■ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت، إلا مات ميتة جاهلية**»[2].

وجاء في عمدة القاري شرح صحيح البخاري:

«قيل: المراد بالمفارقة، السعي في حل عقد البيعة التي حصلت لذلك الأمير ولو ـ بأدنى شيء ـ فكنى عنها بمقدار شبر لأن الأخذ في ذلك يؤول إلى سفك الدماء بغير حق.

وقوله «ميتة جاهلية» أي كموت أهل الجاهلية حيث لم يعرفوا إماماً مطاعاً.. وليس المراد أنه يموت كافراً، بل إنه يموت عاصياً.»

■ روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: **كان الناس يسألون النبي ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا لخير من شر؟ قال: نعم. فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟! قال: نعم وفيه دَخَن. فقلت: وما دخنه؟! قال: قوم يستنون بغير سنتي، ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. فقلت: وهل بعد ذلك الخير من شر؟!، قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، فقلت: يارسول الله صفهم لنا. قال: نعم، قوم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت: يا رسول الله فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. فقلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ فقال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**» واللفظ لمسلم.

وفي رواية أخرى لمسلم: «**قلت: يارسول الله كيف أصنع إن أدركني ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع**». قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٣٧) في شرح قوله ﷺ: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»: «قال الطبري: اختُلفَ في هذا الأمر وفي الجماعة؟، فقال قوم: هو للوجوب، والجماعة: السواد الأعظم. ثم ساق عن محمد بن سيرين عن ابن مسعود أنه وصى من سأله لما قُتل عثمان: «عليك بالجماعة فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد على ضلالة». وقال قوم: المراد بالجماعة الصحابة دون من بعدهم. وقال قوم: المراد بهم أهل العلم، لأن الله جعلهم حجة على الخلق، والناس تَبَعٌ لهم في أمر الدين. قال الطبري: والصواب أن المراد من الخبر: لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره، فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة. قال: وفي الحديث أنه متى لم يكن للناس إمام، فافترق الناس أحزاباً، فلا يتبع أحداً في الفرقة، ويعتزل الجميع إن استطاع ذلك خشية من الوقوع في الشر».

٢ ـ **جماعة المسلمين: هم الطائفة الملازمة للحق من أمة محمد ﷺ**، هذا الحق الذي يمثل الموقف الفكري والاعتقادي الموافق لسنة النبي ﷺ وأصحابه الكرام والموافق لما أجمع عليه علماء الأمة ومجتهدوها في المسائل الاعتقادية والمسائل العملية.

وقد سأل رجل علياً رضي الله عنه عن السنة والبدعة، والجماعة والفرقة، فقال: حفظت المسألة فافهم الجواب:

«السنة ـ والله ـ سنة محمد ﷺ، والبدعة ما فارقها، والجماعة ـ والله ـ مجامعة أهل الحق وإن قلوا، والفرقة مجامعة أهل الباطل ولو كثروا.» وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك»[٣]

وقال ابن القيم رحمه الله في «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»: «ما أحسن ما قاله أبو شامة في كتاب الحوادث والبدع حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة: **والمراد به لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً**. لأن الحق

هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه، ولا نظر إلى كثرة أهل البدع بعدهم. قال عمرو بن ميمون الأَوْدِي: صحبت معاذاً باليمن، فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام، ثم صحبت بعده أفقه الناس: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فسمعته يقول: عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة. ثم سمعته في يوم من الأيام وهو يقول: سيلي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها، فهي الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة، قال قلت: يا أصحاب محمد ﷺ ما أدري ما تحدثونا!. قال: وما ذاك؟، قلت: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها، ثم تقول: صل الصلاة وحدك، وهي الفريضة، وصل مع الجماعة فهي النافلة!! قال: يا عمرو بن ميمون قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية، تدري ما الجماعة؟. قلت: لا.. قال: **الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك**. وفي طريق أخرى فضرب على فخذي، وقال: ويحك إن جمهور الناس فارقوا الجماعة وإن الجماعة ما وافق طاعة الله عز وجل. قال نعيم بن حماد: إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ. ذكره البيهقي وغيره»[٤]

وقد ذكر ابن القيم مثله في «أعلام الموقعين» ثم زاد عليه ما ملخصه: «وقد جعل بعض الناس السنة بدعة، والمعروف منكراً لقة أهل الحق وتفردهم في الأعصار والأمصار. وقالوا: من شذ شذ في النار، وما عرفوا أن الشاذ من خالف الحق، فإن كان الناس كلهم - إلا واحداً - خالفوا الحق فهم الشاذون، وذلك الواحد هو الجماعة.

وقد جاء في إحدى روايات حديث النبي ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة**».

وقد ورد هذا الحديث بألفاظ متعددة، منها قوله ﷺ «... **كلها في النار إلا واحدة، الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي**». «... **كلهم في النار إلا ملة**

واحدة، ما أنا عليه وأصحابي»[٥]

وواضح من الروايات الثلاث: أن الجماعة يوضحها قوله ﷺ: « **ما أنا عليه وأصحابي**» وهو يعني : **التزام ما أجمع عليه المسلمون من أمر العقيدة والدين**.

٣ ـ جماعة المسلمين: هم الفئة من أمة محمد ﷺ التي نبذت الفردية في تحركها لتحقيق الأهداف العملية للمسلمين. . وهم الفئة التي فهمت أمر الله تبارك وتعالى ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾ فصاغت حياتها على أساس هذا الأمر، فاستكملت في أنفسها الخصائص والميزات التي تعينها على أداء المهمات المشتركة، بتفاعل تام وبعد عن الحرج والتشنج من الاختلاف في الآراء والاجتهادات: **وهم الفئة التي فهم كل فرد فيها أهمية التحامه وارتباطه بإخوانه في العقيدة ليحتفظ بالإيمان في نفسه، وليحتفظ باهتمامات العقيدة في قلبه**، فالمؤمن ضعيف بنفسه قوي بأخيه، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس، إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا، فقال:

«**أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يُستحلف، ويشهد الشاهد ولا يستشهد، ألا لا يخلونّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان. عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن**»[٦]

وعلى هذا **فالجماعة** هنا تمثل **دعوة للتعاون المستمر، ودعوة للعمل الجماعي الذي يمكّن الفرد من ضم جهوده وتنسيق نشاطه مع إخوانه في العقيدة ليكون الفرد لبنة في بناء وعضواً في جسد يمتلك كل المقومات الضرورية للتكوين الجماعي بعيداً عن الفردية والانعزالية والتشنج والتشرذم**.

ومن الواضح أن الجماعة التي يؤمر المسلمون بالتزامها في أمثال النصوص

المـذكـورة في هذه الفقـرة ليست واضحـة محـددة كمـا هو الشأن في المعنيين المتقدمين من الجماعة، وما ذلك إلا لأن الصيغة الجماعية والمضمون العملي التفصيلي للأمر بالتعاون ليس له شكل ثابت ووسائل محددة، فذلك يتغير حسب الـظروف والأحـوال، وحسب طبيعـة الهدف الذي يتصدى المسلمون لتحقيقه، وحسب طبيعة «أمر المسلمين» الذي يعالجونه ويسعون لحله.

من كل ما سبق يتضح أن الفهم الدقيق لمعاني المصطلح الإسلامي «جماعة المسلمين» يبين للمؤمن ما يمليه عليه الأمر الشرعي بلزوم الجماعة:

(١) إن جماعة المسلمين التي يؤمر المسلمون ـ نصاً ـ بالتزامها ويأثمون إن فارقوها هي جماعة لا وجود لها بغير الإمام المسلم ذي السلطان الذي أجمع عليه المسلمون بعقد البيعة الشرعية.

(٢) وإن جماعة المسلمين التي تضم كل من سلمت عقيدته من الانحراف، ومواقفه من الزلل.. يندرج كل مسلم تحت لوائها ما دام معتقداً بما أجمع عليه العلماء والمجتهدون من أهل السنة والجماعة.

(٣) وإن العمل الجماعي والتعاون على ما فيه خير المسلمين واجب كذلك، فلا يملك من آمن بالله ورسوله وانتمى بعقله وعواطفه وقلبه إلى أمة الإسلام إلا أن يهتم بمشكلات المسلمين الكبرى ويتصدى لحلها بعيداً عن الفردية ومستشعراً الطبيعة الجماعية لجهود أعداء الإسلام في محاولتهم لاستئصاله، فلا يجد بداً من مقـابلة الأعـداء المجتمعين بوسائل مكافئة تقف باقتدار لمواجهة تخطيط أعداء الإسلام في جهودهم ووسائلهم.. وقد قال تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة، كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ (التوبة: ٣٦).

مما سبق يتضح: إن جماعة المسلمين التي تضم المسلمين وتجمعهم على أمير واحد ذي سلطان تمثل هدف المسلمين البعيد الذي يجب أن تنصب عليه كافة أعمـالهم وجهودهم. وإن جماعة المسلمين المتمثلة بأهل السنة والجماعة وما

أجمع عليه العلماء والمجتهدون من هذه الأمة تمثل العدة الفكرية والاعتقادية لبلوغ هدفها السابق في تحقيق الإمامة الراشدة..

وإن جماعة المسلمين المتمثلة في العمل الجماعي المتعاون على نقاط الاتفاق والاهتمام بأمور المسلمين العامة تمثل الوسيلة العملية والطريقة التي يجب أن نسير بها لبلوغ أهدافنا العملية في الاحتفاظ بالهوية والانتماء الإسلامي لهذه الأمة والوصول بها إلى الخلافة الراشدة على منهاج النبوة بإذن الله.

الهوامش

(١) مقدمة ابن خلدون (١٩١ ـ ١٩٦).

(٢) رواه البخاري بهذا اللفظ، وغيره.

(٣) قال الألباني في «مشكاة المصابيح» (١/ ٦١): رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ٣٢٢/ ٢) بسند صحيح.

(٤) ابن القيم: «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٦٩ـ٧٠) دار المعرفة ـ بيروت.

(٥) حديث صحيح ورد في عدد من كتب الحديث؛ انظر «المقاصد الحسنة» رقم ٣١٦؛ ويراجع شرح الإمام ابن تيمية لهذا الحديث في كتابه القيم «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم» ص ٣١ وما بعدها.

(٦) صحيح الترمذي: (٢/ ٢٣٢): رقم ١٧٥٨.

العمل الجماعي فريضة وضرورة وله آداب وشروط

١ ـ في فطرة الإنسان نزعتان متناقضتان: إحساسه بفرديته، وإحساسه بالميل للاجتماع بالآخرين والحياة معهم كواحد منهم. وهذه الظاهرة ذات أثر بالغ في الحياة البشرية.. لأن كيان المجتمع قائم على محاولة التوفيق بين هذين المتناقضين في الظاهر، ومدى النجاح في عملية التوفيق.

ولقد اضطربت النظم والفلسفات في النظر إلى هاتين النزعتين؛ فوسّع بعضها دائرة الفردية حتى وصلت إلى الأنانية المرذولة وتفكيك روابط المجتمع وتشتيت طاقاته... ووسع بعضها الآخر الدائرة الجماعية حتى قضت على كيان الفرد، وكادت أن تلغي وجوده إذ اعتبرته ذرة ضئيلة تافهة لا يستمد كيانه إلا بوصفه فرداً في القطيع...

أما الإسلام فإنه يوفق بقدر ما في طاقة البشر بين النزعتين الفردية والجماعية إذ يعتبرهما أصيلتين في النفس الإنسانية، على ما يبدو بينهما من التناقض في الظاهر، لأنه التناقض الذي يظهر لمن ينظر إلى الأمر من السطح ولا ينفذ إلى أعماق الفطرة، أو التناقض الذي يحدث في الباطن أو الأعماق بسبب زيادة النسبة المقررة أو اللازمة لكل واحدة من هاتين النزعتين، فتنحرف إحداهما عن مسارها وتتعدى على مسار الأخرى وتشدها إليها. أما حين يأخذ كل منهما مداره الصحيح فلن يحدث التنافر بين الفرد والجماعة أو يحدث الشقاق!.

والإسلام دين الفطرة. . . وهذه هي فطرة الإنسان: **فرد داخل في المجموع: أصيل الفردية، أصيل في الميل للمجموع. . والإسلام يعالج كلتي النزعتين فيغذيهما معاً، ويجعلهما متساندتين بدلاً من أن تكونا متنازعتين.**

٢ ـ والأمر الذي لا تختلف فيه جميع الأنظمة والفلسفات هو أن الحياة الاجتماعية أو الحياة في جماعة أمر لازم للإنسان؛ وأنه ـ أي هذا الإنسان ـ يتأثر ويخضع أيضاً للظواهر الاجتماعية السائدة، أو التي تحكم مجتمعاً من المجتمعات، ومعنى ذلك: إن الإنسان المسلم في هذا العصر يعيش في مجتمعات جاهلية، أو مجتمعات لا يمكن وصفها بالإسلام على كل حال؛ لأنها لا تدين بحكم الله تعالى ولا تخضع لشرعه ولا تراعي منهج الإسلام في العقيدة والتربية والاجتماع والسياسة والاقتصاد. . . ومن ثم فإن هذه المجتمعات تحكمها وتسود فيها قيم واعتبارات وتصورات وظواهر اجتماعية جاهلية أو غير إسلامية؛ معنى ذلك أن هذا الفرد المسلم الذي يعلم من الفطرة الإسلامية أن الفردية والجماعية خطان متلازمان أو ضروريان في كيانه سيجد نفسه بعد أن يأخذها بأسباب الإعداد الفردي والتأهيل الإسلامي الخاص في هذا الجانب. . . سيجد نفسه بعد ذلك خاضعاً في الجانب الاجتماعي إلى مفاهيم وضرورات المجتمع الجاهلي من حوله. . . وهو لن يستطيع التخلص أو الفكاك من ضغط هذه المفاهيم والضرورات ما لم يعش في مجتمع مسلم أو جماعة مسلمة تعيش ـ كجماعة ـ في هذه المفاهيم والتصورات. . . هذا بالإضافة إلى أن طبيعة الإسلام ذاتها تقتضي وجود جماعة متكافلة تقوم بالتكاليف الجماعية. . . كما أن التصور الإسلامي والفضائل الإسلامية تحتاج إلى وسط تحيا فيه وتنمو. . . **وإذا كان الغرض الجوهري للعاملين في الحقل الإسلامي إيجاد المجتمع الإسلامي واستئناف حياة إسلامية صحيحة،** فإن مما لا شك فيه أن الأداة الموصلة إلى تثبيت المفاهيم الإسلامية عند هؤلاء العاملين، وتنشئة الأفراد عليها هي المجتمع الإسلامي نفسه، أو الجماعة الإسلامية التي تسعى إلى إقامته وتمهد بعملها الجماعي لقيامه.

٣ ـ وإذا نظرنا اليوم إلى هذا الجانب من جانبي العمل الإسلامي وجدنا أن جانب الإعداد والتربية على صعيد الأفراد أو على الصعيد الفردي . . يكاد يستوي على سوقه، مع ملاحظة أن هنالك فرقاً واضحاً ـ على الصعيدين النظري والعملي ـ بين المستوى الذي يستطيع الفرد أن يصل إليه على صعيد التربية الفردية من جهة، وعلى صعيد التربية الجماعية من جهة أخرى.

إن مستوى الإعداد الفردي للشباب المسلم اليوم على الصعيد العملي قد بلغ الحد الأدنى الذي يستطيع أحدهم من خلاله أن يصمد للشبهات والشكوك، وأن يكون إيجابياً في مواجهة أية محاولة للطعن والدس، وحين تعجز معلوماته أو اطلاعه عن مثل هذا الرد من إزالة الشبهة أو الاعتراض، فإن له من ثقته بعقيدته وشمولها وسموها وربانيتها ما يجعله يأوي إلى ركن شديد من الاطمئنان والتسليم، فلا تؤثر فيه هذه الاعتراضات؛ ولا تجعله يرتبك أو يفقد الثقة.

٤ ـ وإذا اتجهنا نحو الشطر الآخر لنرى الصورة التي تقف عندها جموع كبيرة من العاملين في الحقل الإسلامي . . أي من وجهة النظر الجماعية وعلى صعيد هذه التربية؛ فإننا سنجد الغرابة والعجب . . .

إن الكثير ممن يمثلون ـ في الظاهر الذي لا شك فيه ـ مستويات رفيعة من الإعداد الفردي والتربية الشخصية . . ما يزالون بعيدين عن الوصول إلى أدنى حد مطلوب من كل مسلم، لا ليكون أهلاً لمشاركة غيره من المسلمين في تحقيق أهدافهم الأساسية أو الكبرى مهما يكن مستوى هذه المشاركة . . لا لهذا فحسب؛ بل ليحقق في «**شخصه**» أيضاً ذلك التوازن الذي لابد منه في الشخصية الإسلامية بين الفردية والجماعية والتي «**تؤهله**» بطبيعتها للقيام بهذا الدور في يوم من الأيام.

٥ ـ وغالباً ما يعتذر أمثال هؤلاء بأنهم لا يريدون أن يقيدوا أنفسهم منذ الآن بالتزامات ليس لكثير منها مبررات واضحة ظاهرة، وأنهم لن يتخلفوا عن مد يد التعاون المخلصة عندما يلاحظون أمراً إيجابياً تتحرك الجموع المؤمنة لتحقيقه.

إن من واجب هؤلاء العاملين أن يعلموا أن فن التعاون والتناسق وموضوع أداء المهمات الجماعية المشتركة يحتاج كل ذلك إلى تدريب مستمر وجهد متواصل، وأن من أهم أهداف العمل الجماعي الإسلامي إنشاء كيان تنظيمي إسلامي يضع الجميع على مستوى العمل المنظم المنسق ومتطلباته لتحقيق الإمامة الراشدة على منهاج النبوة.

وإن مثل من يتوهم أن بإمكانه أن يكون عنصراً فعالاً في أي عمل جماعي مهما يكن مستواه بدون أية مقدمات من الإعداد والتدريب، كمن يظن أن بإمكانه أن يخوض معركة أو حرباً شاملة بعد أن أتقن استعمال سلاحه الفردي؟ أو أتقن الرمي والتسديد من بندقيته أو مسدسه.

إن المقدرة على استعمال السلاح الفردي تختلف تماماً عن استعماله في عمل جماعي منسق منظم... وإن إتقان فن التعاون والتناسق يحتاج إلى خبرة وتدريبات طويلة تماماً كما يفعل الجندي في المناورات عندما يتدرب على استخدام سلاحه الخاص بتنسيقٍ وتعاون مع جميع الأسلحة بأصنافها المختلفة وهي تعمل في الميدان، ويستمر التدريب على فترات طويلة حتى تصل التشكيلات إلى مستوى أداء المهمات الدقيقة والمعقدة بنجاح.

وعلى الرغم من أن الحد الأدنى من الإعداد والتربية الفردية ضرورة لازمة لا يمكن التغاضي عنها أو تجاوزها، فإننا نلاحظ في ساحة الواقع أن بعض الأفراد الذين ينفذون أدق العمليات القتالية الجماعية التي تتطلب مستوى عالياً من التوافق والانسجام والانضباط هم أفراد سطحيون أو بداة جاهلون، ولكنهم أتقنوا هذا الفن من التعاون والتنسيق والتنظيم بجهد مستمر من الإعداد والتدريب، مما يلقي ضوءاً على مسؤولياتنا في إعداد العاملين ليصبحوا على المستوى التنظيمي اللائق بالعمل الإسلامي الجماعي.

٦ ـ لقد كان القرآن الكريم يتعهد الجيل الأول من الصحابة الكرام بالتربية

والإعداد، وكانت آيات القرآن الكريم تمثل الخطوات التي يجب أن يسير عليها منهج التربية لهذه الأمة في نشأتها الأولى، وفي كل مرة تحاول فيها أن تعيد إلى الناس الصورة الكاملة الواضحة لمنهج الله تعالى للبشرية.

ولقد كان العهد المكي يمثل طوراً سلمياً من أطوار الدعوة، وكانت تعليمات النبي ﷺ وتوجيهاته لأصحابه الكرام تأمرهم بالكف والصفح والهجر الجميل، وهذا يعني أن من الخطأ الفادح ـ وفقاً لمنهج القرآن في التربية ـ أن نقحم الفرد في إطار أو ظرف قبل أن يتلقى الزاد الكافي شعورياً وفكرياً وحسياً بحيث يكون أهلاً لخوض التجربة بنجاح.

وفي القرآن الكريم كثير من الإشارات ذات الدلالة في هذا الموضوع:

أ ـ في سورة القمر ـ وهي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم أو أواسط ما نزل بمكة ـ قوله تعالى: ﴿**سيُهزم الجمع ويولون الدبر**﴾ (الآية: ٤٥) وحين نزلت قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه... أي جمع يهزم؟.. فلما كان يوم بدر ورأى رسول الله ﷺ يثب في الدرع ويقول: ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾ ... علم تأويلها أو علم وقت وقوعها[1]، كما يقول المفسرون!

ب ـ وفي سورة الشورى ـ التي نزلت بمكة بعد ذلك ـ يصف الله سبحانه وتعالى ﴿**الذين آمنوا**﴾ بقوله: ﴿**وإذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون**﴾ (الآيات: ٣٧ ـ ٣٩) فتجمع هذه الآيات في وصفهم بين ما هم قائمون عليه متحققون به في مكة، وبين ما سيواجه «**جماعتهم**» في المستقبل من تكاليف وأعباء. وبحسبنا هنا قوله تعالى في صفتهم: ﴿**والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون**﴾ ليعلموا أن اختيار أسلوب المسالمة والصبر في العهد المكي كانت له أسبابه الخاصة الموقوتة، وأنه أمر عارض وليس صفة أساسية في الجماعة المسلمة... ولكن عليهم من الآن ـ وقبل أن يكلفوا بأعباء الجهاد ـ أن يعلموا

بمشاعرهم الفطرية العميقة، فيجبنون عن اقتحام الأهوال!، ولكن التربية القرآنية لا تتحايل على مشاعر الناس، بل تضعهم بوضوح أمام مشاعر قد تلم بهم أو تنتابهم وهم يخوضون غمرات القتال، لتربطهم منذ البداية بمشاعر التوكل والتسليم التي تنفي عنهم التأثير السلبي لمشاعر الناس. . . هذه المشاعر التي تتحرف عن القتال وتتحاشاه. . . **﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** (البقرة: ٢١٦).

٨ ـ والعمل الجماعي الذي يمثل الدعوة التي أكدها النبي ﷺ ـ وهو يأمر بلزوم الجماعة ـ لا يمكن أن يكون في معزل عما ذكرناه من ملامح المنهج القرآني في التربية والإعداد. . ولا بد أن ندرب الناس منذ البداية ونضع أمامهم صورة واضحة للمتطلبات النفسية والشعورية والفكرية والعملية للعمل الجماعي، ولو كان هذا العمل لم يصل إلى حد النضج والكمال أو الاكتمال. . . أو كان هذا العمل في صورته الراهنة لا يستدعي مثل هذا الحشد من المتطلبات والمقدمات، لأن الحكمة تلزمنا ـ بعد إدراكنا لمنهج القرآن في التربية ـ بأن نهتم بمتطلبات العمل الجماعي ومستلزماته، على كل صعيد وفي كل مجال، في وقت مبكر، لتظل النفس تعيش في هذه المتطلبات. . حتى إذا جاء وقت التنفيذ العملي لم يكن في النفس أي ممانعة مستحدثة تجعلها في جبن عن خوض المواقف العملية الجديدة بفعالية واقتدار، أو تجعلها في دهشة تعتريها إزاء مواقف ومتطلبات لم تكن في الحسبان.

---

(١) روى حديث عمر ابن أبي حاتم بإسناده عن عكرمة، وذكره ابن كثير في تفسير سورة القمر، وانظر ما قاله الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٦١٩). عند شرح «باب قوله ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾».

من متطلبات العمل الجماعي

نذكر فيما يأتي طرفاً من المتطلبات النفسية والفكرية والعملية التي تجعل الفرد أهلاً للعمل الجماعي الإسلامي، عسى أن يكون في ذلك إعداد كاف يجعل المسلمين العاملين أقرب إلى الصورة التي رسمها القرآن الكريم للتجمع الإسلامي: «صورة البنيان المرصوص».

أولاً:

إن أول متطلبات العمل الجماعي الامتثال للقيادة والإمارة، والطاعة المخلصة لها، فيما أحب المرء المسلم أو كره... مع القدرة على التمييز الشرعي بين ما تجب فيه الطاعة وبين ما لا تجوز فيه الطاعة أو المتابعة، ويشهد لهذه المعاني نصوص كثيرة، منها هذان الحديثان العظيمان في دلالاتهما:

الأول: عن جُنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض، فقلنا: حدثنا أصلحك الله بحديث ينفع الله به سمعته من رسول الله ﷺ، فقال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فكان مما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة: في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان» (رواه مسلم).

الثاني: عن علي رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سرية وأمر عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب منهم وقال: أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني؟، قالوا: بلى، قال: عزمت عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً ثم

دخلتم فيها. فجمعوا حطباً فأوقدوا ناراً، فلما هموا بالدخول فقاموا ينظر بعضهم إلى بعض، فقال بعضهم: إنما تبعنا النبي ﷺ فراراً من النار، أفندخلها؟!، فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه. فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً إنما الطاعة في المعروف» رواه البخاري، وهو عند مسلم بلفظ: «إن رسول الله ﷺ بعث جيشاً، وأمر عليهم رجلاً، فأوقد ناراً، وقال: ادخلوها. فأراد ناس أن يدخلوها، وقال الآخرون: إنا قد فررنا منها!!. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة. وقال للآخرين قولاً حسناً، وقال: لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف».

وإلى جانب الامتثال والطاعة العالمة الواعية للقيادة، ينبغي أن يلتفت المسلم أيضاً إلى جانب تفاعله وتعامله مع كل من يرتبط به في العمل الجماعي من حيث ما يمثله في مهمته ووظيفته، دون النظر إلى صفاته الشخصية التي قد تروق له أو لا تروق، أو قد ينسجم معها أو لا ينسجم، إذ لا معنى لأي عمل جماعي لا تتوحد فيه جهود العاملين على كلمة جامعة يعبر عنها القائد أو الأمير، وإن أي مجموعة من الرجال دون قائد مطاع مجموعة فاشلة لا تستطيع أن تنجز عملاً من الأعمال، وبخاصة إذا كانت هذه المجموعة مؤلفة من عناصر ممتازة ذات مواهب. وقد يسلم المرء لهذه الفكرة ويطمئن إلى صحتها من الناحية النظرية، ولكننا إذا أردنا أن يستمر هذا الاطمئنان وهذا التسليم فلا بد من الوقوف على متطلباتهما النفسية حرصاً على دوام فكرة الطاعة وعدم تعرضها للضعف والتقلبات:

(١) وإن من أهم هذه المتطلبات: **القدرة على التكيف مع ما يمثله الفرد في البنيان الجماعي** بغض النظر عن الصفات الشخصية والجسمية التي قد تعجب الفرد أو لا تعجبه، فإن الكثير ممن يبدو في عطالة ظاهرة عن العمل الجماعي يحتج لتلك العطالة بأنه يتضايق من فلان أو لا يستطيع أن ينسجم مع فلان أو أنه لا تعجبه

أو لا ترضيه طريقة فلان في التحدث أو معالجة الأمور. . . إلى غير ذلك من المشاعر تجاه الأشخاص.

ومن هنا كان حرص النبي ﷺ على تهيئة الصحابة رضوان الله عليهم وإعدادهم لتقبل هذا الأمر، وما أروع قوله ﷺ: «**اسمعوا وأطيعوا. . . وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة**» (رواه البخاري وغيره).

كأن النبي ﷺ كان يريد أن يدرب أمته على امتلاك هذه الصفة النفسية الضرورية لحفظ وحدتها وجمع كلمتها عندما كان يرسل السرايا والبعوث، وربما أمر عليها بعض الشباب، ومن ليس من أهل السابقة، وفي القوم فضلاء الصحابة.

(٢) وإن من أهم هذه المتطلبات: **امتلاك المقدرة النفسية التي تؤهل الفرد المسلم لأن يحتمل مخالفة آرائه الشخصية ورغباته دون أن يسبب له ذلك شعوراً بخيبة الأمل أو انزعاجاً ينأى به عن الفعالية والإيجابية.**

إن كثيرين ممن تتسلط عليهم بعض الأفكار الجزئية في الإصلاح أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يغالون في الاندفاع وراء أفكارهم الجزئية وخاصة إذا كانت تشغل حيزاً من نفوسهم ومطالعاتهم واهتماماتهم حتى يخرجهم ذلك من دائرة الطاعة والالتزام وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. . فتراهم يتحدثون في أي مجال يكونون فيه عن أفكارهم ونظراتهم، ولا يتحرجون من اتهام من لا يشاركهم في تقييمهم لأفكارهم ونظراتهم بالقصور والجهل والجمود والتحجر. . ويظلون على هذه الحال حتى يخرجهم ذلك عن فكرة الطاعة والالتزام.

إن أمثال هؤلاء يجب أن يتأملوا بعمق خطبة سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عندما قال: «يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة. . . فإنها حبل الله الذي أمر به. . . وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة».

إن أمثال هؤلاء يجب أن يعلموا أن من واجبهم عندما يرون بعداً عن الحق والصواب، أو قصوراً عن الاهتمام ببعض الأمور التي يرون أهميتها، أن يصدعوا

بالحق كما عرفوه، ويؤدوا واجبهم في النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ كل ذلك بآدابه وشروطه ـ حتى إذا انطلقوا للعمل كانت تصرفاتهم دليلاً واضحاً على أن كلامهم ونصحهم ما كان ليؤثر في شدة إيمانهم بالعمل الجماعي، وبالحرص الشديد على تقديم متطلباته على أي اعتبار آخر.

إن هنـاك وسـائل عديدة يستطيع المرء عن طريقها أن يصحح الأخطاء ويقوّم الاعوجاج، ولكن الطريقة الوحيدة التي لا تخطر ببال المؤمن الواعي هي أن يتخذ من النصيحة والصدع بالحق وسيلة لتدمير ثقة الناس بالعمل الجماعي أو ثقتهم بقادتهم أو أمرائهم.

أخرج أحمد بن حنبل عن القاسم بن عوف عن رجل قال: «كنا قد حملنا لأبي ذر رضي الله عنه شيئاً نريد أن نعطيه إياه، فأتينا الربذة فسألنا عنه فلم نجده، قيل: استأذن في الحج فأذن له، فأتيناه بالبلدة، وهي منى، فبينا نحن عنده إذ قيل له: إن عثمان ـ رضي الله عنه ـ صلى أربعاً. فاشتد ذلك على أبي ذر وقال قولاً شديداً، وقال: صليت مع رسول الله ﷺ فصلى ركعتين، وصليت مع أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ. ثم قام أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ فصلى أربعاً، فقيل له: عبت على أمير المؤمنين شيئاً ثم صنعت؟ قال: الخلاف أشد. إن رسول الله ﷺ خطبنا فقال: إنه كائن بعدي سلطان فلا تذلوه، فمن أراد أن يذله فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وليس بمقبول منه توبة حتى يسد ثلمته التي ثلم، وليس بفاعل، ثم يعود فيكون فيمن يعـزه، أمرنا رسول الله ﷺ أن لا يغلبونا على ثلاث: أن نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ونعلم الناس السنن»[1].

ولعل مما يؤيد هذا المعنى ما ذهب إليه بعض الفقهاء من وجوب متابعة الإمام في صلاة الجماعة ولو ترك سنة أو سها عن واجب، لأن الحفاظ على الجماعة أولى من المفارقة!.. ويقرب من هذا ما نص عليه الشافعية من أن ضابط العذر المبيح لمفارقة الجماعة هو العذر المرخص لتركها ابتداء.

وإن من أوضح ما يدل على هذه المعاني أيضاً ما أخرجه مسلم في صحيحه عن **عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قتل رجل من حمير رجلاً من العدو فأراد سلبه، فمنعه خالد بن الوليد وكان والياً عليهم، فأتى رسول الله ﷺ عوف بن مالك فأخبره، فقال لخالد: ما منعك أن تعطيه سلبه، قال: استكثرته يا رسول الله، قال: ادفعه إليه، فمر خالد بعوف فجرّ بردائه[٢] ثم قال: هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله ﷺ؟، فسمعه رسول الله ﷺ فاستُغضِبَ فقال: «لا تعطه يا خالد، لا تعطه يا خالد. هل أنتم تاركون لي أمرائي، إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعي إبلاً أو غنماً فرعاها ثم تحيّن سقيها فأوردها حوضاً فشرعت فيه فشربت صفوه وتركت كدره، فصفوه لكم وكدره عليهم»**[٣]

هذا ولن يستطيع المرء أن يصل إلى مثل هذا الوعي والإدراك ما لم يتدرب ـ وعلى فترات طويلة ـ على مخالفة آرائه ونظراته ورغباته حتى إذا اعتاد ذلك وصل إلى نفسية الجندي الذي يعتمد عليه في أي أمر، ولو لم يتسع الوقت لإعطائه المبررات والمقدمات التي تجعل القيادة تفضل بعض الحلول والاقتراحات. وهذا المعنى تؤكده النصوص النبوية مثل قوله ﷺ: «**إنما العلم بالتعلّم، وإنما الحلم بالتحلّم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقَّه**»[٤]، وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه «**أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: «ما يكن من خير فلن أدَّخره عنكم، ومن يستعفف يعفَّه الله، ومن يستغنِ يغنه الله، ومن يتصبَّر يصبِّره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر**».

يقول الإمام الغزالي عن العلاقة بين القلب والجوارح: «فكل أمر يكون في القلب يظهر أثره على الجوارح لا محالة، وكل أمر في الجوارح وتتكلف فعله يترشح منه إلى القلب أثر» وإن اعتياد التدريبات الحسية المتكلفة والصدمات الشعورية المفتعلة يترشح منها إلى القلب مشاعر الاحتمال والصبر والقدرة النفسية على

احتمال أي أمر وتقبّل أية تعليمات مهما تكن مزعجة أو مخالفة للرغبات والأهواء الشخصية.

ولكن لن تكون مثل هذه التدريبات ناجحة في إحداث الأثر المطلوب في النفس والقلب إلا إذا صاحبها الوعي العام للمعنى المراد تحقيقه في القلب مع كل مرحلة من مراحل التدريب، لأن التدريبات الحسية مهما بلغت لن تنجح في إحداث الأثر المطلوب بدون هذا الوعي والفهم العميق.

ويوضح هذه الناحية ويشرحها قول الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾ (البقرة: ١٨٣).

فالصيام الذي هو امتناع عن الطعام والشراب وسائر المفطرات يقصد من ورائه ذلك الأثر الذي يرتفع إلى القلب وهو شعور التقوى فإذا غفل الإنسان عن الربط الواعي بين التجارب الحسية التي يمر بها والمعاني الكريمة التي يجب أن يلاحظها وهي تترشح إلى قلبه، لم يكن له من صيامه إلا الجوع والعطش، ولم يكن للقائم من قيامه إلا التعب والنصب، وإن كان يظن نفسه أنه يشارك الصائمين والقائمين فيما يستشعرونه في قلوبهم من المعاني والمشاعر لأنه يشاركهم بجهدهم وعطشهم وتعبهم ونصبهم..

ولكن مثل هذا الشعور لن يرتفع إلى القلب إلا إذا وعى الإنسان معنى البعد عن الشهوات استجابة لرغبة أو خوف من الله عز وجل، فإذا استطاع المرء أن يربط بهذا المعنى كل عمل يعمله، ترشح إلى القلب ذلك المعنى الكريم، وحقق هدفه التربوي ﴿**لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم**﴾ (الحج: ٣٧).

وكذلك عندما يتدرب المرء على احتمال الألم والصدمات الحسية العنيفة يكتسب المقدرة على الصبر والتماسك أمام الصعوبات النفسية والشعورية...

ثانياً:

ومن أهم ما يميز الفرد الصالح للعمل المشترك مع الآخرين **سعة الصدر وسعة**

الأفق لتقبل الآراء والمواقف والاجتهادات المخالفة . . .

إن المرء الذي يضيق صدره عن أن يتسع لما يخالف آراءه في المسائل الاجتهادية لا يصلح للعمل الجماعي مهما كان مستواه، وإن المرء الذي ينكر على الآخرين حق النظر المستقل هو شخص يحمل في نفسه صفات تسلطية تحرمه من فهم معنى التسامح الواجب في العمل مع الآخرين، وتجعله ممن يمكن أن نصفهم بالتعصب والتحجر.

إن المسائل التي أجمع عليها علماء الأمة ـ سواء منها ما يتعلق بالعقائد أو الأمور العملية ـ تعتبر الحد الأدنى لما يجب أن يلتزم به ويقف عنده كل مسلم حتى لا يخرج من «جماعة المسلمين» ـ ذلك المصطلح الذي يعني في هذا المقام موقفاً فكرياً وعقيدياً يوافق صاحبه ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ـ وأما ما وراء ذلك من المسائل الظنية الثبوت أو الظنية الدلالة، فإن الاختلاف فيها أمر طبيعي نابع من تفاوت عقول البشر في الفهم ـ وفي تقدير الأمور والمصالح.

والمسلم الذي يريد أن يدرب نفسه ليكون أهلاً للعمل الجماعي يجب أن يحرص على أن يعي هذه النقطة بعمق. . . فينكر عندما يرى خروجاً على الإجماع، ويسلم عندما يرى اجتهاداً في الأمور الظنية ولو كان هذا الاجتهاد يخالف ما تعلمه، ويخالف تصوره عن هذه الأمور.

إن الحق في المسائل الخلافية لا يتعدد، فلا بد أن يكون أحد المجتهدين مصيباً. . . ولكن الله تعالى ضمن الأجر والقبول لكل مؤمن تحرى الصدق وبذل جهده ووسعه ليتعرف على الحق؛ حتى إذا غلب على ظنه جواب أو رأي أو موقف. . . فهو الرأي والموقف الذي يتقبل الله تعالى منه ما دام أنه لم يخرج في فهمه عن قواعد الاستنباط ومناهج الفهم المقررة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. ولقد كان هذا الأمر مما تدرب عليه الصحابة رضي الله عنهم، وأبدوا فيه نموذجاً رائعاً للفهم وسعة الصدر. فقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ عندما أراد

أن يتوجه إلى بني قريظة ليستأصل الغدر والخيانة نادى في المسلمين: «**لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**»، فتخوف ناس فوت الوقت دون بني قريظة، وقال آخرون: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت، قال: فما عنّف واحداً من الفريقين[٥].

وفي مثل هذا الإقرار تأكيد على أهم متطلبات العمل الجماعي في سعة الصدر للآراء والمواقف الاجتهادية المخالفة... وإن مما يجب أن نشير إليه في هذه الحادثة أن الصحابة رضي الله عنهم لم يستوقفهم مثل هذا الخلاف للجدال والخصام، فقد كان هدفهم الكبير في القضاء على بني قريظة يغلب على إحساسهم فلم تشغلهم الجزئيات، لأن الحفاظ على وحدة الجماعة في مثل هذا الظرف أهم من الحرص على الجزئيات.

وجدير بمن يمارسون العمل الجماعي أن يتدبروا هذه القصة العميقة في دلالاتها، روى البخاري في «كتاب تقصير الصلاة ـ باب الصلاة بمنى» عن عبد الرحمن بن يزيد قال: «**صلى بنا عثمان بن عفان رضي الله عنه بمنى أربع ركعات، فقيل ذلك لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فاسترجع، ثم قال صليت مع رسول الله ﷺ بمنى ركعتين، وصليت مع أبي بكر رضي الله عنه بمنى ركعتين، وصليت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمنى ركعتين، فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان**». قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٢/٥٦٤): «وإنما استرجع ابن مسعود لما وقع عنده من مخالفة الأولى. ويؤيده ما روى أبو داود «**أن ابن مسعود صلى أربعاً، فقيل له: عبت على عثمان ثم صليت أربعاً!!، فقال: الخلاف شر**» وفي رواية البيهقي: «**إني لأكره الخلاف**».

إن توجس بعض الناس وتأذيهم من الخلاف في الأمور الاجتهادية، ومحاولتهم القضاء على هذه الظاهرة عبث لا يستقيم مع الفهم العميق لطبيعة الأدلة الشرعية في الأحكام العملية... ولو أمكن أن تتوحد الأفهام عندما تتصدى لتحليل

النصوص ذات الدلالة الظنية لكان الصحابة هم أولى الناس بهذا الفهم الموحد. . . ولكنها حكمة الله تعالى التي تريد توسيعاً على العباد وبعداً بهم عن الحرج في الدين، أرادت أن تسبغ عليهم هذه المنة الكبرى، وما عليهم إلا أن يهذبوا نفوسهم بالتربية والتأديب حتى لا يجنح بهم هذا الاختلاف الطبيعي إلى الحزبية والتعصب والتحجر.

وحين يصدر الأمر عن الأمير، فإن هذا التسليم وسعة الصدر للآراء الاجتهادية يعينان على الطاعة والالتزام لرأي الأمير أو القائد، ولو جاء مخالفاً للآراء والاجتهادات الشخصية. . . ويعتبر موقف كل من أبي ذر وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما من صلاة عثمان رضي الله عنه الظهر أربعاً في منى مثالاً رائعاً للانضباط الإسلامي الواجب مع القادة والأمراء، ومثالاً رائعاً للحرص الشديد على جمع شمل الأمة والبعد بها عن الخلاف والشقاق.

وكثيراً ما يدور النقاش بين العاملين في مجال الدعوة حول أساليب العمل والحركة وطرقها، وقد يترتب على مثل هذه الأحاديث بعض الآثار السلبية في فعالية الفرد ونشاطه واندفاعه.

إن موقف الفرد من مثل هذه الأحاديث والمناقشات يجب أن يكون موقف المتحري للصواب الذي لا يرد حقاً ظهرت حجته، مهما كان بين صاحب هذا الحق وبينه من المواقف والسلبيات، حتى لا يقع الفرد في الكبر الذي هو بطر الحق وغمط الناس، وليس من الكبر المنهي عنه أن يختلف الناس في الأمور الاجتهادية التي تترك لرأي الأمير واجتهاده، ولو كان عند بعضهم طرف من دليل أو جانب من صواب. فإن كل الأساليب التي يمكن استخدامها لبلوغ هدف معين لا تعدو أن تكون أموراً اجتهادية لا يدعم أيا منها دليل قطعي ثابت لا تجوز مخالفته بحال، وفي مثل هذه الأمور الاجتهادية يترك الأمر لتقدير الأمير واجتهاده، والطاعة في الأمور والمسائل الاجتهادية واجبة، وفي مثل هذه الأحوال تسعف المرء ثقته بقائده

وأميره، وثقته كذلك بطريقه الذي اختار وملاءمة هذا الطريق لمعطيات الواقع والإمكانات المتوفرة للعمل.

ثالثاً:

ومما يجب أن يتحلى به المرء في مجال العمل الجماعي: **القدرة على التعاون مع المستويات المختلفة في الفهم والوعي والتنفيذ والأخذ بالعزائم.**

إن المرء الذي يدرك حقيقة اختلاف الناس في طاقاتهم ومستوياتهم لا يضيق صدراً بما يراه منهم من مواقف قد لا ترتقي إلى المستوى الذي يرتضيه هو لنفسه، أو إلى المستوى الذي يراه ضرورياً في جميع الأفراد تبعاً لقوة إيمانه ومدى تمثله لفكرته وعقيدته. إن كثيراً من الأفراد ـ وبخاصة أولئك المتميزين الذين حباهم الله من المواهب ما يجعلهم يتفوقون على أقرانهم في أية ناحية من النواحي، قد يستولي عليهم شعور من السخط والاستياء عندما لا يجدون فيمن حولهم من يشاركهم اهتماماتهم أو مستوياتهم في الفهم والإدراك، أو الحماسة والاندفاع، أو لا يجدون فيمن حولهم من يشاركهم في الأخذ بالعزائم، فتراهم لا يستطيعون التعاون مع الناس، وقد ينتهي بهم الأمر إلى شعور من التعالي يصل بهم إلى الكبر والغرور ويبتعد بهم عن خلق التواضع للمؤمنين والذلة لهم.

وهنا نذكر نصين يؤكدان على أن الناس مختلفون في طاقاتهم ومواهبهم، ومتباينون في عزائهم:

الأول: «كان معاذ يصلي مع رسول الله ﷺ العشاء (الآخرة) ثم يرجع فيصلي بأصحابه، فرجع ذات ليلة فصلى بهم، وصلى فتى من قومه (من بني سلمة يقال له: سليم)، فلما أطال على الفتى (انصرف فـ) صلى (في ناحية المسجد)، وخرج وأخذ بخطام بعيره وانطلق، فلما صلى معاذ، ذُكر ذلك له، فقال: إن هذا به لنفاق!، لأخبرن رسول الله ﷺ بالذي صنع، وقال الفتى: وأنا لأخبرن رسول الله ﷺ بالذي صنع، فغدوا على رسول الله ﷺ، فأخبره معاذ بالذي صنع الفتى، فقال الفتى: يا رسول الله، يطيل المكث عندك، ثم يرجع فيطيل علينا. فقال رسول الله

ﷺ: أفتان أنت يا معاذ؟!، وقال للفتى: كيف تصنع أنت يا ابن أخي إذا صليت؟، قال: أقرأ بفاتحة الكتاب، وأسأل الله الجنة، وأعوذ به من النار، وإني لا أدري ما دندنتك ودندنة معاذ، فقال رسول الله ﷺ: إني ومعاذ حول هاتين، أو نحو ذلك، قال: فقال الفتى: ولكن سيعلم معاذ إذا قدم القوم وقد خبِّروا أن العدو قد أتوا. قال: فقدموا، فاستشهد الفتى، فقال رسول الله ﷺ بعد ذلك لمعاذ: ما فعل خصمي وخصمك؟، قال: يا رسول الله ـ صدق الله، وكذبتُ ـ استشهد»[٦]

الثاني: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نبايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، يقول لنا: «فيما استطعت» (رواه مسلم).

إن هذا التباين في قدرات البشر يدعو كل مسلم، منخرط في عمل جماعي، إلى تحقيق المعاني الآتي ذكرها في نفسه، إذا أراد أن يكون عضواً فعالاً في جماعة:

١ ـ إن على المرء في مجال العمل الجماعي ألا يضيق صدراً بعدم مشاركة الناس له فيما ارتضاه لنفسه من مستوى عال من الأخذ بالعزائم أو الشدة على النفس والصلابة في التمسك... إن عليه أن يتذكر أن إخوانه من حوله وإن لم يشاركوه في كل ما ذكرناه... يتفقون معه على طريقة واحدة ومنهج واحد في الوعي والفهم، ويتفقون معه في الفهم المتكامل الشامل للإسلام ومنهجه في الحياة، ويتفقون معه على أساسيات العمل والحركة... وإن عليه أن يدرك أن حركة الناس بهذا الدين بعيداً عن الفهم الشامل لروح الإسلام، وبعيداً عن الأساسيات في العمل والحركة لن تكون ذات غناء، ولن تثمر أي فائدة يرجوها مؤمن مخلص واع.

إن الوقوف على المنهج السديد في العمل والحركة، يمثل القوة التي أمر المؤمنون بإعداد ما يستطيعون منها، ولن يكون البديل عن هذه القوة في الوعي والحركة والعمل قوة أخرى في الأخذ بالعزائم والشدة على النفس والصلابة في التمسك، فإن لكل قوة مجالاً، ولا تغني واحدة عن أخرى. وإلى هذا أشار حديث

«**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. . .**» (رواه مسلم).

٢ ـ إن المرء الذي يتذوق متطلبات العمل الجماعي يستطيع أن يجد في كل فرد من حوله بعض النقاط الإيجابية التي يستطيع أن يتعاون معه على أساسها مهما تكن هذه النقاط جزئية أو ذات أهمية محدودة. . . وما على المرء في هذا المجال إلا أن يعمل على تطوير مقدرته على كشف نقاط الالتقاء، ويتعود الصبر وسعة الصدر حتى يتقبل مستويات الناس ويسلم لهم أحوالهم، وما عليه في هذا السبيل إلا أن يحرص على آداب التعاون ومستلزماته حتى يصل بمجموعته إلى الانسجام والتوافق، وإلى شعور عميق بالوحدة تجمعهم وتشدهم إلى بعض بعيداً عن كل ما يؤدي إلى التدابر والتفرق والانقسام.

٣ ـ إن النصح والوعظ وشحذ الهمم واجب أساسي في عنق كل مسلم، ولكن الذي أثبتناه من ضرورة التكيف مع مستويات الناس المختلفة لا يعني إلا أن يكون النصح والوعظ وشحذ همم الناس واعياً، وبعيداً عن تدمير وحدة الصف.

إن للنصيحة آداباً يجب أن يتخلق بها كل ناصح، وإن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آداباً كذلك وشروطاً. . . وإن من أهم واجبات الناصح المخلص والداعية الواعي أن لا يفوّت أموراً ومصالح أشد ضرورة للمسلمين وللمجتمع الإسلامي مما يدعو هو إليه.

إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح. . . وإن من الحكمة أن نترك السعي للوصول إلى مصلحة ما ـ ولو كان فيها الخير والصواب ـ إذا كانت تفوت مصلحة في مرتبتها أو أعلى منها. . . وإن من أهم ما يجب أن يحرص عليه المؤمن الواعي هو: جمع الكلمة والبعد والحذر الشديد من تدمير ثقة الناس بالعمل الجماعي وضرورته وجديته.

والنصوص الشرعية توجه إلى تأصيل ما سبق ذكره في الحركة الجماعية، من

ذلك ما رواه مسلم من قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «**لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية، لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها من الحِجْر**» وفي رواية عند أحمد والنسائي: «**لولا حداثة عهد قومك بالكفر، لنقضت البيت، فبنيته على أساس إبراهيم وجعلت له خلفاً، فإن قريشاً لما بنت البيت استقصرت**» ومعنى استقصرت: لم يكف المال الذي جمعوه من حلال لإعادة بنائها حين تهدم البيت بالسيل، فلم تُعِد بناءه كما كان.

فالذين يتقدمون إلى العمل الجماعي ينبغي أن يفقهوا متى يعملون بـ «**لولا . .**» فيمتنعون عن أمور مشروعة لعدم اكتمال شروط النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

رابعاً:

وإن من أهم ما يجب أن يدركه المرء بعمق عندما يكون في أي عمل جماعي: **أن مما يميز الفكرة الإسلامية والخلق الإسلامي عن الأفكار والفلسفات البشرية أنها جميعاً تتزلف للفرد حين تعلمه لغة المطالبة بالحقوق والنضال من أجل الأخذ، بينما يسمو الإسلام بالفرد حين يعلمه لغة الواجب والأداء والعطاء.**

إن لغة المطالبة بالحقوق عندما تكون هي لغة التفاهم الأولى بين الناس في أي تجمع، فإن ذلك يعني أن علاقات الناس تنتهي بهم إلى الصراع والحقد. . لأن حق كل فرد يمثل واجب فرد أو أفراد آخرين، ولغة المطالبة الملحة تنتهي بالطرفين إلى علاقات متوترة بعيدة عن المودة والتسامح والصفاء.

أما لغة العطاء والأداء والواجب فإنها تنتهي بالجميع إلى الوئام والحب، وتكون النتيجة الطبيعية لمثل هذه اللغة في التفاهم أن يصل الجميع إلى حقوقهم بصورة غير مباشرة بعيداً عن الالتزام المحرج أو المواجهة العنيفة بعد أن يقدم كل فرد مثالاً وقدوة لكل من حوله بالعمل الصامت الدائب مع احتسابه الأجر والثواب عند الله تعالى.

إن أي عمل جماعي ناجح لا يكون نجاحه إلا على أكتاف أولئك الذين يؤمنون بالواجب والبذل، ولا يرهقون غيرهم بالإصرار على الحقوق.

إن الإسلام يعلم الفرد لغة الواجب ولغة البذل والعطاء، ويدفعه في هذا السبيل بكل وسيلة، فالنصيحة بكل ما تعنيه من التزام الحق وتبينه، ومحاولة نشره بين الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالسمع والطاعة والإيثار. . . كل ذلك وسائل مجدية: من تذوقها وأدرك أبعادها في البنية الاجتماعية التي يعيشها، أدرك تماماً أن الإسلام يربي الفرد الصالح على أن يكون همه ما يعطي وما يبذل لا ما يأخذ.

عن وائل الحضرمي قال: «**سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم، ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا؟. فأعرض عنه، ثم سأله، فأعرض عنه، ثم سأله في الثانية أو في الثالثة، فجذبه الأشعث بن قيس وقال: اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حمِّلوا، وعليكم ما حمِّلتم**». وفي رواية «**قال: فجذبه الأشعث بن قيس، فقال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حُمِّلوا، وعليكم ما حُمِّلتم**» (رواه مسلم).

خامساً:

وبعد أن يدرك الفرد واجبه في العمل على التكيف على مفهوم الواجب والعطاء، ومفهوم الكف والتسليم للآخرين الذين لا يماثلونه عملياً في الإمكانات والفهم، ومفهوم سعة الصدر ليتسع للآراء والمواقف الاجتهادية المخالفة، لابد له أن يقف ملياً، ويتأمل بعض الآداب الإسلامية في التعامل مع الناس ـ وذلك حتى لا تؤدي تصرفاته، وهو يتحرك بينهم إلى إثارة بعض الحساسيات وكوامن المشاعر التي قد تعقد الأمور، وتنأى بالفرد عن تحقيق أهدافه التي يرجوها ويعمل من أجلها:

١ ـ إن أول أدب يجب أن يلتفت إليه الفرد في تعامله مع الناس: **الرفق**

والمـداراة . . فـ «**إن الـرفق لا يكـون في شيء إلا زانه، ولا ينزع عن شيء إلا شانـه**»[٧] وعنـد مسلم من حديث عائشة: «**يا عائشة: إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**». والمداراة الواجبة هي: التلطف بالخلق لاستخراج الحق منهم، أو ردهم عن الباطل أو لاتقاء شرهم، روى الترمذي في «باب ما جاء في المداراة»: «**عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده، فقال: بئس ابن العشيرة ـ أو أخو العشيرة ـ، ثم أذن له، فألان له القول، فلما خرج قلت له: يا رسول الله! قلت له ما قلت، ثم ألنت له القول؟ قال: يا عائشة إن من شر الناس من تركه الناس ـ أو وَدَعَه الناس ـ اتقاء فحشه**» (صحيح سنن الترمذي رقم: ١٦٢٤). والمداراة لا تعني المداهنة التي هي التلطف بالخلق لإقرارهم على الباطل ﴿**ودوا لو تدهن فيدهنون**» (القلم: ٩)

إن الـرفق والمداراة من أخلاق المؤمنين، والمداهنة من أخلاق المنافقين. . ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين * ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم**﴾ (فصلت: ٣٢ ـ ٣٥)

٢ ـ وإن من آداب المؤمنين: **التواضع وخفض الجناح**. . ويجب أن يراعى هذا الأدب بخـاصة عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو عند النصيحة حتى لا تتخذ مثل هذه الأعمال طابع التعالي والفوقية والأستاذية، ولعل أهم ما تجب مراعاته في هذا السبيل: إبداء النصح على انفراد وفي السر، حتى لا يكون في ذلك توبيخ أو تأنيب وتقـريع على رؤوس الأشهاد، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بمن يحمل مسؤولية جمـاعية، ففي الحـديث «**لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة**» (رواه مسلم). **وروى مسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قيل له: ألا تدخل على عثمان فتكلمه؟، فقال: أترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم؟!!**

أن الجماعة التي أعدت لتكون خير أمة أخرجت للناس. . . من صفاتها الأساسية: الانتصار من البغي وعدم الخضوع للظلم. . . وأن عليها أن تدفع العدوان. . . ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ (المنافقون: ٨).

هذه المواقف وأمثالها تذكرنا بأن طبيعة المنهج القرآني في إعداد هذه الأمة أن تهيأ بصورة مبكرة في مشاعرها وأحاسيسها وأفكارها وتدريبها لما يفرضه عليها المستقبل من احتمالات. ومن هذه القاعدة التربوية القرآنية ذاتها كان توجيه النبي الكريم ﷺ في قوله: «**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه به، مات على شعبة من النفاق**» (رواه مسلم).

لأن حديث النفس ليس أحلاماً أو خواطر تسبح في الفراغ. . . ولكنه تحرق وتشوق وإعداد يصوغ حياة المرء في أصغر شؤونها وأخطرها على حد سواء. . ولعل هذا ما يذكر به الإمام حسن البنا رحمه الله في وصيته المشهورة «لا تمزح فإن الأمة المجاهدة لا تعرف إلا الجد».

٧ ـ بل إن الجهاد يذكرنا بأمر تربوي آخر أبعد أثراً وأعمق دلالة. . وهو هذا الإعداد النفسي المسبق الذي بقي في الجماعة المسلمة مستمراً لم ينقطع حتى حين فرض عليهم القتال وأصبحوا على أبواب المعركة! هذا هو قول الله تبارك وتعالى يخاطبهم: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم**﴾ (البقرة: ٢١٦). . نعم! إن الله تعالى يقول: ﴿**وهو كره لكم**﴾! لا ليثبطهم عن القتال وقد أمر به!. ولكن ليربي فيهم مشاعرهم الإنسانية تجاه التكاليف والتبعات حتى لا تكون هذه المشاعر عقبة أمام تلك التكاليف!!.

ومهما فكر الإنسان فلن يعثر على مثل هذه الصراحة في مواجهة المشاعر الإنسانية!، حتى في مثل تلك الحالة التي تكون فيها هذه المشاعر عقبة في سبيل تنفيذ تلك الأوامر والتكاليف والتبعات!، إن المناهج الأرضية في التربية تحاول أن تتحايل لتستر هذا الشعور ظناً منها أن تذكير الناس به قد يقلل حماستهم ويذكرهم

والله لقـد كلمته فيما بيني وبينه ما دون أن أفتتح أمراً لا أحب أن أكون أول من فتحه. . .»، يعني بذلك: التطاول على الأمراء المفضي إلى فتح باب الفتنة.

٣ ـ ولا بأس هنا بالتذكير السريع بجملة من الصفات التي يجب أن يتحلى بها المسلم الداعية في تعامله مع الناس، في سبيل تحقيق أهدافه في العمل والدعوة ـ كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل ـ فإلى جانب وجوب التلطف في إيصال الفكرة أو التوجه إلى الآخرين بالرد أو الاعتراض ـ وهي صورة من صور المداراة والرفق ـ فإنه لابد أن تكون **عند الداعية القدرة على فهم دوافع التصرف عند الناس ـ مع قبوله للأعذار ـ وحسن الظن بالمسلمين، والبعد عن التجسس عليهم، فضلاً عن عدم الطعن بالآخرين، مع الاهتمام بشعور المسلمين العامة وشعوره العميق بمسؤوليته تجاه الدعوة**. ولهذا فإن من الصفات الأساسية هنا: **ضرورة تقديم مصلحة الدعوة على المصلحة الشخصية**، لأن الأولى أصيلة وثابتة. . والثانية غالباً ما تكون عارضة أو موهمة.

يضاف إلى ذلك ضرورة تحلي الفرد **بالموضوعية والأمانة العلمية**، هذه الصفة التي تعكس لوناً من ألوان ذلك التقديم لمصلحة الدعوة، إلى جانب ما توحي به من الثقة عند المسلم وعند الناس على حد سواء.

وأخيراً فإن فاعلية المسلم الداعية وإيجابيته في هذا المجال لا تتجلى في شيء كما تتجلى في **روح التفاؤل** التي ينبغي أن تشيع في نفسه، وتطبع مواقفه وأعماله. . . ونعني بالتفاؤل هنا: القدرة على العمل والحركة، أو على الاستمرار بهما، ضمن ظواهر اليأس المحدق، وعدم تثبيط الهمم بل مخاطبة الناس بوحي من الأمل وعدم اليأس: ﴿**إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾ (يوسف: ٨٧).

خلاصة القول: إن القاعدة الذهبية في التعامل مع الناس تكمن في حرص الفرد على أن ألا يضع بين الحق والناس عقبات وعراقيل كان بإمكانه أن يتفاداها، فيقلل

بذلك من تحسس الناس وإثارة مشاعرهم. . وإن خير ما نستطيع أن نتجلى من خلاله هذه القاعدة الذهبية قول الله تعالى في وجوب العدل مع المشركين ﴿**ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**. . .﴾ (المائدة: ٨) إن المشرك الذي تخلى عن أهم ما يميز إنسانيته من الفكر والنظر والاعتبار، هو في حاجة إلى من يحاوره، ويبين له سبيل النجاة. . لذا فإن من واجب المؤمن الواعي أن يحرص على أن يبقى طريق عودة هذا المشرك وأمثاله من الضالين مفتوحاً ليس فيه أي عقبة تحجزه عن الالتحاق بركب الإيمان متى أراد.

إن الظلم والحيف إذا وقعا على المشرك يقيمان من العداوات الشخصية والحواجز النفسية ما يصعب معه أن يترك دينه ويقلع عن ضلالاته ويلتحق بركب الإيمان ولو توصل إلى الاقتناع الذهني والاطمئنان العقلي.

إن العدل الذي رفع لواءه الفاتحون المسلمون من الجيل الأول هو الذي ساهم في نشر الإسلام في الأرض وفتح له القلوب، وهو الذي جعل أهل حمص يقولون عن رضى واقتناع «لأنتم أحب إلينا من الروم ولو كانوا على ديننا!». . . ولقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه مراعاة مشاعر الناس وعدم إيحاشهم.

إن المؤمنين كما وصفهم رسول الله ﷺ «**المؤمنون هيّنون ليّنون**»[٨] يألفون الناس ويؤلفون وفي الحديث «**المؤمن يألف ويُؤْلَف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس**»[٩] وإن الإنسان لا يصل إلى مرتبة يألفه فيها الناس إلا عندما يكون هؤلاء في مأمن مما يثير مشاعرهم ويأنسون بصحبته في لين ورفق وهدوء، يقول عليه الصلاة والسلام: «**إن من أحبكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون**» قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين، فما المتفيقهون؟ قال: «**المتكبرون**»[١٠]

الهوامش:

(١) الفتح الرباني: (٢٣/ ٤٥ ـ ٤٦)، وقال الهيثمي: فيه راوٍ لم يسمّ وبقية رجاله ثقات.

(٢) أي جذب عوف خالداً من ردائه.

(٣) قال الألباني في «مختصر صحيح مسلم» «ص ٣٠٣»: يشير بذلك إلى ما في رواية أحمد، قال عوف: لئن رأيت رسول الله ﷺ لأذكرن ذلك له. وفيها أن هذه الغزوة كانت إلى طرف الشام.

(٤) صحيح الجامع الصغير، الحديث رقم ٢٣٢٤، وقال الألباني: حسن.

(٥) متفق عليه، وفي رواية مسلم: «الظهر».

(٦) رواه البيهقي، وقال الألباني في «صفة صلاة النبي» «ص ١٠٣»: وأصل القصة في «الصحيحين»، والزيادة الأولى لمسلم في رواية، والثانية لأحمد (٥/ ٧٤)، والثالثة والرابعة للبخاري.

(٧) رواه مسلم وغيره.

(٨) انظر المقاصد الحسنة رقم ١١١٤، وصحيح الجامع الصغير رقم ٦٥٤٥.

(٩) صحيح الجامع الصغير، رقم: ٦٥٣٨

(١٠) صحيح سنن الترمذي (رقم: ١٦٤٢)، وقال الترمذي: «الثرثار: هو كثير الكلام. والمتشدق: هو الذي يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم».

خاتمة

وبعد:

فإن هذا الذي ذكرناه في موضوع العمل الجماعي، لا يعني أكثر من التنبيه على أهم الشروط والمعاني التي يجب على الفرد أن يتأملها بعمق ويتفاعل معها بإيجابية، حتى يكون فعالاً متحركاً في جميع ظروف العمل وأحواله المختلفة.. ودون أن يؤثر ذلك على رهافة حسه نحو ملاحظة الخطأ، وإبداء النصح، محتفظاً بوعيه لأهداف اشتراكه في العمل الجماعي، بحيث يختار على الدوام أخف الضررين عندما ينطلق للعمل بخطة يرى فيها بعض الخطأ والقصور، فيتفادى بذلك وقوعه في خطأ أكبر، ورسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية» صحيح سنن الترمذي (رقم: ٨١٧).

والحمد لله رب العالمين